Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار السادس - العدد السابع عشر || تاريخ الإصدار 2026-08-20

الاخلاق كفلسفة أولى عند ايمانويل ليفيناس

Ethics as First Philosophy according to Emmanuel Levinas

المدرس المساعد نور علي عبد الحنين

Assistant Lecturer Noor Ali Abd-AL Haneen

جامعة واسط- كلية الآداب- قسم الفلسفة

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss61731

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:

تُعدُّ عبارة "نحن أسبق على الأنا والآخر "مدخلاً أساسياً لفهم المشروع الأنطولوجي عند إيمانويل ليفيناس، الذي يؤسس لفلسفة تقوم على وحدة خلقيّة، غايتها رسم معالم العلاقة بين الذات والغير. وفي هذا السياق، يُحدث ليفيناس قطيعة إبستيمولوجية مع الفلسفة التقليدية، إذ ينتقل بها من سؤال الوجود بوصفه محوراً أولياً، إلى جعل الأخلاق هي الفلسفة الأولى، مؤكداً أن التفكير الأخلاقي عنده يتخذ طابعاً اجتماعياً بالضرورة، لأنه يتصل مباشرة بجوهر الإنسانية وشروطها. ولا تقوم فلسفته على منطق التنازع، بل تدعو إلى التجاوز والانفتاح، معتبرةً أن "الوجه "هو الركيزة الأنطولوجية والأخلاقية التي تُبنى عليها مقولاته الأساسية، بحيث يصير هذا الوجه هو المعيار الجوهري في تأسيس التواصل بين الأنا والآخر، إذ يستحيل الفصل بين الكائن الإنساني ومظهره الوجهي. فالمواجهة مع الوجه، وفقاً ليفيناس، تشكل حدثاً حوارياً أصيلاً، قد يتحقق من دون خطاب لفظي، إذ يُفهم الوجه فيمنولوجياً باعتباره كاشفاً عن ماهية الإنسان. وكأن الحضور الوجهي يحمل طابعاً إلهياً، أو هو تجلٍّ للقدسي في آنية المواجهة، وهذا ما يعززه قول ليفيناس" :فحينما تلتقي الأنا بالأنت تبدأ العلاقة الأصلية للحدث الأخلاقي."

الكلمات المفتاحية: المسؤولية، الاخلاق، الاخر، الوجه.

Abstract:

The statement "We precede the I and the Other" serves as a fundamental entry point for understanding the ontological project of Emmanuel Levinas, who establishes a philosophy rooted in a moral unity aimed at delineating the contours of the relationship between the self and the other. Within this context, Levinas effects an epistemological rupture with traditional philosophy, shifting its focus from the question of Being as a primary axis to positioning ethics as first philosophy. He emphasizes that ethical reflection in his thought necessarily assumes a social character, as it pertains directly to the essence and conditions of humanity. His philosophy is not grounded in a logic of conflict; rather, it calls for transcendence and openness, conceiving "the Face" as the ontological and ethical foundation upon which his primary categories are constructed. Consequently, the Face becomes the essential benchmark in establishing communication between the I and the Other, given the impossibility of separating the human being from their facial manifestation. According to Levinas, the encounter with the Face constitutes an authentic dialogical event that may occur even without verbal discourse, as the Face is phenomenologically understood as a revelation of the human essence. It is as though the facial presence bears a divine character—a manifestation of the sacred in the immediacy of the encounter. This is reinforced by Levinas's assertion: "When the I meets the Thou, the original relationship of the ethical event begins."

Keywords: Responsibility, Ethics, The Other, The Face.

المقدمة

شهدت الفلسفة الغربية المعاصرة تنوعاً منهجياً وتعدداً اتجاهياً، تمثّل في قطيعة معرفية واضحة مع الفلسفة المذهبية التي امتدت جذورها من العقل اليوناني وصولاً إلى العصر الحديث. ومع أفول هذه المرحلة وبداية القرن التاسع عشر، اتخذ الفكر الفلسفي منحى مغايراً جذرياً لما كان سائداً، بدءاً بالبراغماتية التي سعت إلى ربط الفكر بالواقع ونبذ الميتافيزيقا، مروراً بالفلسفة الحيوية، وتحليل اللغة، والوضعية المنطقية، وصولاً إلى الفينومينولوجيا والوجودية كمنعطفات تأسيسية في سياق الفلسفة القارية.

وفي هذا الإطار، أقام إيمانويل ليفيناس مشروعه الأخلاقي، عبر شبكة مفاهيمية كثيفة وغير قابلة للحصر، مثل: الغيرية، الهوية، الآخر، الوجه، اللانهائي، الايتيقا، وفينومينولوجيا الموت. وقد استند في ذلك إلى معطيات سيرته الذاتية من جهة، وإلى روافد فكرية متعددة استقى منها من جهة أخرى. وتحتل الإيتيقا موقعاً محورياً في منظومته، ذلك أن تشكّل هوية الذات لا يتم إلا عبر مواجهتها مع الإنسان المغاير لها، فالآخر في مشروعه ليس خصماً للأنا، بل شريكاً في التواصل ومحوراً للحوار، ما يأسس لأخلاق قائمة على المسؤولية تجاه الآخر بوصفها جوهراً للوجود الإنساني.

أولا: المسؤولية الأخلاقية تجاه الآخر عند إيمانويل ليفيناس

"تحتل العلاقة مع الآخر موقعاً مركزياً، في الفلسفة الأخلاقية عند إيمانويل ليفيناس، إذ ينقل مركز التفكير الفلسفي من سؤال الوجود إلى سؤال الأخلاق. فالإنسان لا يكتشف المعنى الأخلاقي لوجوده، من خلال انغلاقه على ذاته أو من خلال تأمله للوجود بصورة مجردة، وإنما من خلال مواجهته للآخر والدخول معه في علاقة مباشرة. ومن هنا يصبح اللقاء بالآخر، ولا سيما من خلال مفهوم "الوجه"، نقطة الانطلاق الأساسية للفعل الأخلاقي.(علي،2018: 401).[1]

يمثل الوجه عند ليفيناس أكثر من مجرد حضور حسي للآخر؛ فهو يحمل نداءً أخلاقياً يوجه إلى الذات ويضعها أمام مسؤولية لا تستطيع التنصل منها. فعندما تواجه الذات وجه الآخر، فإنها لا تواجه شخصاً غريباً، أو موضوعاً يمكن إخضاعه للمعرفة والسيطرة، وإنما تواجه إنساناً يطالبها بالاعتراف به واحترامه. ولذلك فإن العلاقة "وجهاً لوجه" تكشف عن المعنى الحقيقي للإنسانية، لأنها تنقل الذات من الاهتمام بذاتها إلى الانفتاح على الآخر وتحمل المسؤولية تجاهه.

وتبعاً لذلك، فإن العلاقة بالآخر ليست عند ليفيناس علاقة تقوم على الصراع أو التنافس، بل هي علاقة أخلاقية أساسها القبول والحوار والتسامح. وفي هذا السياق يختلف تصور ليفيناس عن التصور الذي عبّر عنه سارتر في مقولته الشهيرة "الجحيم هم الآخرون"، إذ لا ينظر ليفيناس إلى الآخر باعتباره تهديداً لحرية الذات أو مصدراً للصراع، وإنما باعتباره حضوراً أخلاقياً يقاوم كل محاولة لامتلاكه أو احتوائه. فالآخر يحتفظ دائماً بتجاوزه واستقلاله، ولا يمكن اختزاله في الصورة التي تكونها الذات عنه.(سارتر، 1964: 73)[2]

ومن هنا يرتبط حضور الوجه عند ليفيناس بالبعد الأخلاقي والديني في آن واحد؛ فالوجه يكشف للذات عن نداء يتجاوز حدود العلاقة المادية المباشرة، ويجعلها تستشعر حضور اللامتناهي. ولذلك يرى ليفيناس أن الطريق إلى الله لا يمر بعيداً عن الإنسان، وإنما يتجسد من خلال المسؤولية تجاه الآخر. فالمسؤولية عن الآخر تسبق القواعد القانونية، وتصبح بمثابة استجابة للنداء الأخلاقي الذي يحمله الوجه. وبذلك يتحول التعالي الإلهي من مفهوم مجرد إلى تجربة أخلاقية حية تظهر في العلاقة مع الإنسان الآخر.

وعندما تستجيب الأنا لهذا النداء، فإنها تتجاوز أنانيتها وانغلاقها على ذاتها، وتصبح مستعدة لتحمل مسؤولية الآخر. وهذه المسؤولية لا تقوم على مبدأ التبادل أو انتظار المعاملة بالمثل؛ فالذات لا تكون مسؤولة عن الآخر لأنها تتوقع منه أن يكون مسؤولاً عنها بالدرجة نفسها، وإنما تتحمل المسؤولية انطلاقاً من حضور الآخر ذاته. ولهذا يؤكد ليفيناس أن المسؤولية الأخلاقية ذات طبيعة غير تماثلية، فالذات مطالبة دائماً بأن تشعر بمسؤولية أكبر تجاه الآخر، ولا يمكنها أن تتنازل عن هذه المسؤولية أو أن تنقلها إلى شخص آخر.

وفي هذا الإطار، تصبح المسؤولية عند ليفيناس أكثر عمقاً من مجرد الالتزام بقاعدة قانونية. فهي ليست التزاماً خارجياً تفرضه سلطة أو مؤسسة، وإنما هي مسؤولية حية، وديناميكية تنبع من اللقاء بالوجه. فالوجه لا يقدم للذات مجرد معرفة عن الآخر، وإنما يوقظ فيها شعوراً أخلاقياً يدفعها إلى الاستجابة. ومن هنا يمكن فهم المسؤولية بوصفها استجابة مباشرة لنداء الآخر، وهي استجابة لا تتوقف على وجود منفعة أو مكافأة أو مقابل.(عمر، 2015-2016: 77)[3]

وتصل هذه المسؤولية إلى أقصى درجاتها عندما يكون الآخر معرضاً للخطر أو الموت. فالموت عند ليفيناس لا ينبغي أن يُفهم فقط بوصفه ظاهرة بيولوجية، أو مشكلة أنطولوجية تتعلق بنهاية الوجود، وإنما يمكن أن يكشف عن بُعد أخلاقي عميق. فعندما يكون الآخر مهدداً بالموت، تجد الذات نفسها أمام مسؤولية لا تسمح لها بأن تبقى مجرد متفرج. ومن هنا تنتقل العلاقة مع الموت من كونها إشكالاً متعلقاً بالوجود إلى كونها علاقة أخلاقية تفرض على الذات حماية الآخر وعدم التخلي عنه.

إن الخطر الذي يهدد الآخر يكشف بصورة واضحة طبيعة المسؤولية الأخلاقية عند ليفيناس، إذ يصبح من المستحيل ترك الآخر وحيداً أمام مصيره. فالذات لا تستطيع أن تتعامل مع موت الآخر بوصفه حدثاً خارجياً لا يعنيها، لأن وجود الآخر أمامها يستدعي منها الاستجابة. ولهذا يمكن أن تبلغ المسؤولية درجة التضحية بالذات من أجل الآخر، فالذات الأخلاقية لا تجعل حياتها ومصالحها الخاصة معياراً وحيداً للفعل، وإنما تكون مستعدة للتضحية عندما تقتضي مسؤوليتها تجاه الآخر ذلك.(المسيري، 1999: 413)[4]

ويرتبط هذا التصور بفكرة الأخوة والمسؤولية التي تظهر في رواية دوستويفسكي الإخوة كارامازوف، ولا سيما الفكرة التي تفيد بأن الإنسان مسؤول عن الآخرين، بل قد يكون أكثر مسؤولية عنهم من مسؤوليتهم هم عن أنفسهم. ويستثمر ليفيناس هذه الفكرة لتأكيد أن المسؤولية الأخلاقية لا تقوم على المساواة الحسابية بين الأنا والآخر، وإنما على أولوية مسؤولية الذات تجاه الآخر".

وبذلك تصبح المسؤولية عند ليفيناس مسؤولية غير مشروطة؛ فهي لا تنتظر من الآخر أن يقدم شيئاً في المقابل، ولا تقوم على منفعة متبادلة. فالفعل الأخلاقي لا يكون أخلاقياً لأنه يحقق للذات فائدة معينة، وإنما لأنه استجابة لنداء الآخر. ومن هنا تقترب أخلاق ليفيناس من فكرة "الأخلاق من أجل الأخلاق"، حيث تصبح قيمة الفعل الأخلاقي نابعة من مسؤوليته تجاه الآخر وليس من النتائج أو المكاسب التي يمكن أن تحققها الذات لنفسها.

وعليه، فإن المسؤولية الأخلاقية عند ليفيناس تبدأ من اللقاء بالوجه، وتتطور إلى الاعتراف بالآخر، ثم تتحول إلى التزام ومسؤولية تجاهه، وتبلغ ذروتها في مواجهة الخطر والموت. فالآخر لا يمثل مجرد طرف في علاقة اجتماعية، وإنما يمثل الأساس الذي من خلاله تكتشف الذات حقيقتها الأخلاقية. وبقدر ما تستجيب الذات لنداء الآخر وتتخلى عن أنانيتها ورغبتها في السيطرة عليه، بقدر ما تحقق معنى الأخلاق.

ومن ثم يمكن القول إن مشروع ليفيناس الأخلاقي يقوم على قلب العلاقة التقليدية بين الذات والآخر؛ فبدلاً من أن يكون الآخر موضوعاً تابعاً للذات، تصبح الذات هي المسؤولة أمام الآخر. وبدلاً من أن تكون الأخلاق مجموعة من القواعد العامة المجردة، تصبح تجربة حية تبدأ من اللقاء الإنساني المباشر. وهكذا تتحول العلاقة وجهاً لوجه إلى أساس المسؤولية، وتتحول المسؤولية إلى الطريق الذي تتجاوز من خلاله الذات أنانيتها نحو الاعتراف بالآخر واحترامه وحماية حياته.

وبهذا المعنى، فإن الأخلاق عند ليفيناس ليست مرحلة لاحقة على الوجود، وإنما هي الأساس الذي يمنح الوجود الإنساني معناه؛ لأن الإنسان لا يصبح إنساناً أخلاقياً من خلال معرفته بذاته فقط، بل من خلال قدرته على الاستجابة للآخر وتحمل المسؤولية عنه، حتى عندما لا ينتظر منه مقابلاً أو اعترافاً بهذه المسؤولية.(علي،2018: 402)[5]

يمثل مفهوم الأخلاق محورًا أساسيًا في المشروع الفلسفي لإيمانويل ليفيناس، بل يمكن القول إن الفلسفة عنده تتأسس ابتداءً من السؤال الأخلاقي، ولذلك وصف الأخلاق بأنها «الفلسفة الأولى». والمقصود بذلك أن الأخلاق لا تأتي بوصفها فرعًا من فروع الفلسفة أو مجموعة من القواعد التي تنظم السلوك الإنساني، وإنما تشكل الأساس الذي ينبغي أن تنطلق منه الفلسفة في فهم الإنسان وعلاقته بالآخر. ومن هنا يوجه ليفيناس نقدًا عميقًا للتراث الفلسفي الغربي الذي منح الأولوية للأنطولوجيا، أي لسؤال الوجود، على حساب العلاقة الإنسانية المباشرة مع الآخر.(عمر،2015-2016: 73)[6]

ينطلق ليفيناس من الاعتقاد بأن الإنسان لا يمكن فهمه بوصفه ذاتًا مكتفية بذاتها ومنغلقة على عالمها الداخلي، لأن وجوده يتحدد بصورة جوهرية من خلال علاقته بالآخر. ولذلك فإن العلاقة مع الغير لا تمثل واقعة ثانوية تضاف إلى وجود الذات بعد اكتماله، بل إنها شرط أساسي لتكوين الذات ذاتها. ومن هذا المنطلق، تصبح الأخلاق سابقة على المعرفة النظرية وعلى التأمل الأنطولوجي؛ إذ إن الإنسان يجد نفسه منذ البداية أمام الآخر، ومطالبًا بالاستجابة لحضوره.

"وقد ارتبطت فلسفة ليفيناس الأخلاقية بمحاولة نقد النزعة الأنطولوجية التي سادت جزءًا كبيرًا من الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ولا سيما لدى هايدغر. فإذا كانت الأنطولوجيا التقليدية تنطلق من سؤال الوجود وماهيته، فإن ليفيناس يقترح الانتقال من سؤال «ما الوجود؟» إلى سؤال أكثر أصالة، هو: ما مسؤوليتي تجاه الآخر؟ وبذلك تتحول الفلسفة من البحث في الوجود بوصفه موضوعًا للمعرفة إلى البحث في العلاقة الأخلاقية التي تنشأ بين الذات والآخر.

وفي هذا السياق، لا ينظر ليفيناس إلى الآخر بوصفه موضوعًا يمكن للذات أن تستوعبه أو تضعه ضمن تصوراتها الخاصة. فالآخر يتمتع باستقلال جذري عن الذات، ولا يمكن اختزاله إلى صورة ذهنية أو مفهوم معرفي تمتلكه الذات. وهذا ما يجعل العلاقة الأخلاقية مختلفة عن علاقة المعرفة بالموضوع؛ إذ إن الموضوع يمكن أن يخضع للإدراك والتحليل والتصنيف، بينما الآخر يتجاوز دائمًا محاولات الاختزال والاستيعاب.

ومن هنا يكتسب مفهوم الوجه أهمية مركزية في فلسفة ليفيناس. فالوجه ليس مجرد المظهر الحسي للإنسان، وإنما هو الطريقة التي يحضر بها الآخر أمام الذات بوصفه كائنًا متعاليًا عليها، لا يمكن امتلاكه أو السيطرة عليه. إن مواجهة الوجه تضع الذات أمام نداء أخلاقي سابق على كل تفكير نظري؛ فالوجه لا يكتفي بالحضور، وإنما يستدعي المسؤولية ويطالب الذات بالاستجابة.

وعلى هذا الأساس، فإن العلاقة «وجهًا لوجه» لا تعني مجرد لقاء جسدي بين شخصين، بل تشير إلى علاقة أخلاقية عميقة يتواجه فيها الإنسان مع إنسان آخر يظل محتفظًا بغربته واختلافه. فالآخر لا يصبح نسخة من الذات، ولا يتحول إلى موضوع تابع لها، بل يحتفظ بفرادته واستقلاله. ومن ثم فإن المسافة التي تفصل الذات عن الآخر ليست عائقًا أمام العلاقة، وإنما هي الشرط الذي يجعل العلاقة الأخلاقية ممكنة؛ لأن الاعتراف بالآخر يفترض الاعتراف باختلافه وعدم محاولة إلغائه أو إخضاعه للذات.(ليفيناس، 2014: 91)[7]

وفي هذا الإطار، يرفض ليفيناس أن تكون العلاقة بالآخر مجرد علاقة معرفية تقوم على محاولة فهمه واستيعابه وإدخاله في إطار مفاهيم الذات. فالآخر، في نظره، يتجاوز قدرة الذات على الإحاطة الكاملة به. ولذلك فإن العلاقة الأخلاقية لا تقوم على امتلاك معرفة نهائية بالآخر، وإنما على الاعتراف بحضوره وحقه في الاختلاف. إن هذا الاعتراف هو الذي يجعل العلاقة مع الآخر علاقة أخلاقية وليست مجرد علاقة معرفية.

وتتجلى أهمية الأخلاق هنا في أن الذات تصبح مسؤولة عن الآخر قبل أن تكون قادرة على تحديد هذه المسؤولية أو اختيارها بصورة واعية. فاللقاء مع الآخر يضع الإنسان أمام واجب لا يستطيع التخلص منه بسهولة؛ إذ إن وجه الآخر يستدعي المسؤولية ويكشف للذات أنها ليست موجودة من أجل ذاتها فقط، وإنما هي موجودة كذلك من أجل الآخر. ولذلك تصبح المسؤولية عند ليفيناس سابقة على الحرية بمعناها التقليدي؛ فالإنسان لا يختار أولًا أن يكون مسؤولًا ثم يبدأ بعد ذلك في ممارسة الأخلاق، وإنما يجد نفسه مسؤولًا بمجرد دخوله في علاقة مع الآخر.(إبراهيم، 1966: 87)[8]

وهنا تظهر المسافة الأساسية بين فلسفة ليفيناس والفلسفات التي تجعل الحرية والاستقلال الفردي نقطة البداية. فالذات عنده لا تُفهم بوصفها ذاتًا مستقلة تمامًا ثم تدخل في علاقة مع الآخرين، بل تتكون أخلاقيًا من خلال هذه العلاقة نفسها. فالآخر يكشف للذات حدودها، ويمنعها من تحويل العالم إلى مجال خالص لامتلاكها وسيطرتها. ومن ثم فإن المسؤولية تمثل البعد الأعمق للوجود الإنساني.

ولا تتوقف المسؤولية عند حدود التعاطف أو الرغبة الشخصية في مساعدة الآخر، لأنها في فلسفة ليفيناس مسؤولية أعمق وأكثر جذرية. فالذات مسؤولة عن الآخر حتى عندما لا تكون هناك مصلحة مباشرة تربطها به، وحتى عندما لا يكون الآخر قادرًا على تقديم شيء في المقابل. ولهذا فإن الأخلاق عند ليفيناس لا تقوم على مبدأ التبادل أو المنفعة، وإنما على أولوية الآخر واستحقاقه للرعاية والاحترام".

ومن هنا يمكن فهم رفض ليفيناس للنموذج الذي يجعل العلاقة بين الذات والآخر علاقة متناظرة تمامًا. فالعلاقة الأخلاقية ليست بالضرورة علاقة تقوم على المساواة في الأخذ والعطاء، وإنما تقوم أساسًا على مسؤولية الذات تجاه الآخر. فالآخر ليس مجرد انعكاس للذات، ولا يمكن اختزاله إلى «أنا» أخرى تشبهني؛ بل هو كائن مختلف يحتفظ بخصوصيته، وهذا الاختلاف هو الذي يمنح العلاقة الأخلاقية معناها.

وتظهر في هذا السياق أهمية مفهوم الاختلاف؛ إذ لا يمكن للأخلاق أن تقوم إذا ألغت الذات اختلاف الآخر وحولته إلى صورة مطابقة لها. فكل محاولة لرد الآخر إلى الذات أو استيعابه بالكامل، تؤدي إلى إلغاء حقيقته الأخلاقية. لذلك فإن الاعتراف بالآخر يتطلب الحفاظ على المسافة التي تفصل بين الذات والغير، لأن هذه المسافة هي التي تسمح للآخر بأن يظهر بوصفه آخرًا بالفعل.(بتلر، 2014: 11)[9]

وعلى هذا الأساس، يميز ليفيناس بين الأخلاق بمعناها العام وبين «الإتيقا» التي يقصد بها العلاقة الأولية والمباشرة بين الذات والآخر. فالأخلاق بمعناها المتداول قد تشير إلى منظومة من القيم والمعايير والمبادئ التي تنظم السلوك الإنساني داخل المجتمع، بينما تشير الإتيقا عند ليفيناس إلى العلاقة الأصلية التي تنشأ بين الذات والآخر قبل صياغة القواعد والقوانين الأخلاقية. ولذلك يمكن القول إن القواعد الأخلاقية تأتي في مرحلة لاحقة، بينما تشكل العلاقة مع الآخر الأساس الذي يجعل ظهور الأخلاق ممكنًا.

إن الإتيقا، وفق هذا التصور، ليست مجموعة من الأوامر التي تفرضها سلطة خارجية على الإنسان، بل هي تجربة وجودية تبدأ منذ اللحظة التي تلتقي فيها الذات بالآخر. فاللقاء مع الآخر يفتح مجالًا للتخاطب والحوار والمسؤولية والاعتراف المتبادل، ومن ثم تصبح الأخلاق مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بإمكان التواصل الإنساني.

ولهذا يصف ليفيناس الإتيقا بأنها «الفلسفة الأولى»، لأنها تمثل الشرط الذي يجعل التفكير الفلسفي ممكنًا في صورته الإنسانية. فالإنسان لا يبدأ علاقته بالعالم بوصفه موضوعًا معرفيًا محضًا، وإنما يبدأها من خلال علاقته بالآخر. ومن هنا يتحول السؤال الفلسفي من سؤال مجرد حول الوجود إلى سؤال أخلاقي يتصل بمسؤولية الإنسان عن غيره.(ليفيناس، 2014: 8)[10]

ويكتسب هذا التصور أهمية خاصة في مواجهة التصور الهايدغري للوجود. فإذا كان هايدغر قد جعل سؤال الوجود محورًا أساسيًا للفلسفة، فإن ليفيناس يرى أن اختزال الفكر الفلسفي في سؤال الوجود قد يؤدي إلى إهمال البعد الأخلاقي الذي يتجسد في حضور الآخر. فالاهتمام بالوجود، عندما يتحول إلى اهتمام حصري، قد يجعل الآخر مجرد كائن من بين الموجودات، في حين أن الآخر عند ليفيناس يتجاوز هذه النظرة؛ لأنه يظهر أمام الذات بوصفه نداءً أخلاقيًا ومسؤولية لا يمكن اختزالها إلى مجرد موضوع.

ومن هنا يرفض ليفيناس التصورات التي تجعل العلاقة بالآخر مجرد مسألة أنطولوجية. فالآخر لا ينبغي أن يُفهم فقط من خلال موقعه داخل بنية الوجود، وإنما ينبغي أن يُفهم أولًا من خلال العلاقة الأخلاقية التي تربط الذات به. ولهذا فإن حضور الآخر يمثل تحديًا للذات؛ فهو يكشف حدود قدرتها على السيطرة والفهم والاختزال، ويجعلها أمام مسؤولية لا تستطيع التخلص منها.

"ويترتب على ذلك أن الذات عند ليفيناس لا تتأسس من خلال الانغلاق على نفسها، وإنما من خلال الانفتاح على الآخر. فالإنسان لا يكتشف ذاته في العزلة، بل يكتشفها في العلاقة التي تجمعه بغيره. وبذلك تصبح العلاقة الأخلاقية شرطًا من شروط تحقق الذات، لأن الذات لا تكون ذاتًا أخلاقية إلا بوجود الآخر الذي يستدعي منها المسؤولية والاستجابة.

إن هذه الرؤية تجعل الأخلاق عند ليفيناس مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمفهوم المسؤولية غير المشروطة. فالذات مسؤولة عن الآخر قبل أن تسأل عن استحقاقه لهذه المسؤولية، وقبل أن تبحث عن مقابل لها. وهذا يعني أن الأخلاق لا تقوم على الحساب والمنفعة والمبادلة، وإنما على الاستجابة للنداء الذي يصدر عن الآخر. ومن هنا يصبح الاعتراف بالآخر شرطًا ضروريًا لبناء علاقة أخلاقية حقيقية.(ليفيناس، 2014: 15)[11]

ويؤكد ليفيناس أن العلاقة مع الآخر لا يمكن أن تتحول إلى علاقة امتلاك أو سيطرة، لأن الآخر يظل متعاليًا على كل محاولة لإدخاله في حدود الذات. فالآخر «غريب» عن الذات، وهذه الغرابة ليست نقصًا ينبغي التخلص منه، وإنما هي أساس العلاقة الأخلاقية. إذ لو كان الآخر مطابقًا للذات تمامًا، لما كانت هناك حاجة إلى الاعتراف به أو تحمل المسؤولية تجاهه.

ومن ثم فإن الأخلاق عند ليفيناس تقوم على مفارقة أساسية: فهي تنشأ من العلاقة مع الآخر، لكنها لا تلغي اختلافه، بل تجعل من هذا الاختلاف شرطًا لوجودها. فالذات لا تستطيع أن تكون أخلاقية إلا إذا اعترفت بأن الآخر ليس امتدادًا لها ولا موضوعًا يمكن التحكم فيه. ولهذا فإن احترام الآخر يعني المحافظة على فرادته وعدم إخضاعه لمقاييس الذات الخاصة.

ويترتب على ذلك أن الوجود الإنساني لا يمكن اختزاله في مجرد حضور الفرد مع ذاته أو في علاقته بالعالم المادي، بل يتحدد بصورة أعمق من خلال علاقته بالآخر. ومن هنا يجعل ليفيناس سؤال «وجهًا لوجه» نقطة انطلاق فلسفته الأخلاقية؛ لأن هذا اللقاء يكشف أن العلاقة بين الذات والآخر هي الشرط الأول للاتصال الإنساني ولنشوء المسؤولية.

وعلى الرغم من أن ليفيناس ينتقد بعض جوانب الفلسفة الوجودية والأنطولوجية، فإنه يلتقي معها في التأكيد على أهمية التجربة الإنسانية المباشرة. غير أنه يمنح هذه التجربة بعدًا أخلاقيًا يتجاوز مجرد وصف الوجود الفردي. فالحياة الإنسانية عنده لا تتمثل في الوعي بالوجود فحسب، بل في الإحساس بالآخر والاستجابة له وتحمل المسؤولية تجاهه.(ليشته، د.ت: 244)[12]

وبذلك يمكن القول إن فلسفة ليفيناس الأخلاقية تمثل محاولة لإعادة بناء الفلسفة انطلاقًا من العلاقة الإنسانية بدلًا من الانطلاق من الذات المنعزلة أو من سؤال الوجود المجرد. فالأخلاق ليست مرحلة لاحقة تأتي بعد الأنطولوجيا، بل هي الأصل الذي ينبغي أن تُفهم في ضوئه علاقة الإنسان بنفسه وبالعالم وبالآخر.

ومن هنا تتضح دلالة وصف ليفيناس للأخلاق بأنها «فلسفة أولى»؛ فالأولوية هنا ليست زمنية، بمعنى أن الأخلاق تظهر قبل بقية فروع الفلسفة فحسب، وإنما هي أولوية تأسيسية، لأنها تحدد طبيعة العلاقة التي تجعل وجود الإنسان ذا معنى. فالإنسان لا يصبح إنسانًا أخلاقيًا من خلال امتلاك مجموعة من القواعد والمبادئ فقط، وإنما من خلال استعداده للاستجابة للآخر والاعتراف بفرادته وتحمل المسؤولية تجاهه.

وعليه، فإن الإتيقا عند ليفيناس تمثل انتقالًا من فلسفة تتمحور حول الذات إلى فلسفة تتمحور حول الآخر. فالذات لا تعود هي المركز المطلق الذي يقيس الأشياء كلها وفق معاييره، وإنما تصبح مسؤولة أمام الآخر الذي يواجهها بحضوره وفرادته. وبذلك تتحول الأخلاق من مجرد نظام معياري للسلوك إلى تجربة إنسانية عميقة تؤسس معنى الذات والعلاقة الإنسانية.

إن جوهر المشروع الأخلاقي عند ليفيناس يتمثل، في نهاية المطاف، في إعادة الاعتبار للآخر بوصفه أساسًا لإمكان الأخلاق. فالآخر ليس موضوعًا للمعرفة فحسب، ولا مجرد فرد آخر يشترك مع الذات في الوجود، وإنما هو حضور يفرض على الذات مسؤولية أخلاقية. ومن ثم فإن الاعتراف بالآخر واحترام اختلافه وعدم إخضاعه للذات تمثل جميعها شروطًا أساسية لقيام علاقة إنسانية أخلاقية.

وبهذا المعنى، تتأسس الأخلاق عند ليفيناس على الوجه، والاختلاف، والمسؤولية، والاعتراف، واللقاء، والإتيقا بوصفها مفاهيم مترابطة تشكل البنية الأساسية لفلسفته. فالأخلاق تبدأ عندما تخرج الذات من انغلاقها على نفسها وتستجيب للآخر، وتصبح الفلسفة أخلاقية بالقدر الذي تستطيع فيه أن تجعل من هذا الآخر أولوية لا يجوز اختزالها في مجرد موضوع للمعرفة أو الوجود.(ليفيناس، 2014:36)[13]

وعليه، فإن فلسفة ليفيناس تقدم تصورًا مغايرًا للأخلاق، يجعلها أعمق من مجرد الالتزام بالقواعد والمعايير؛ فهي علاقة أولية بالآخر، ومسؤولية تسبق الاختيار، واعتراف بالاختلاف يرفض كل أشكال الهيمنة والاختزال. ومن هنا استحق مفهوم الأخلاق عنده أن يكون مدخلًا لفهم الإنسان والفلسفة معًا، وأن تُفهم الإتيقا بوصفها الفلسفة الأولى التي تسبق كل تفكير في الوجود وتمنح العلاقة الإنسانية معناها الأصيل".

ثانيا:- الأخلاق كفلسفة أولى عند إيمانويل ليفيناس

يمثل مفهوم الأخلاق نقطة الانطلاق الأساسية في فلسفة إيمانويل ليفيناس، إذ لم يتعامل معها بوصفها مجرد مجموعة من القواعد أو المبادئ التي تنظم السلوك الإنساني، وإنما منحها مكانة تأسيسية جعلته يصفها بأنها «الفلسفة الأولى». ويعني ذلك أن الأخلاق، في تصوره، لا تأتي بعد التفكير في الوجود، ولا تشكل فرعًا من فروع الفلسفة فحسب، وإنما تمثل الأساس الذي ينبغي أن ينطلق منه التفكير الفلسفي في فهم الإنسان وعلاقته بالآخر.

وينطلق ليفيناس من نقد التصور الذي يجعل الذات مركزًا للفلسفة، بحيث يصبح الآخر مجرد موضوع يمكن للذات أن تدركه وتفهمه وتستوعبه ضمن تصوراتها الخاصة. فالآخر، في نظره، لا يمكن اختزاله إلى موضوع معرفي، لأنه يمتلك استقلالًا وخصوصية تتجاوز قدرة الذات على الإحاطة به. ومن هنا تصبح العلاقة مع الآخر سابقة على المعرفة النظرية، لأن الإنسان يجد نفسه منذ البداية أمام حضور إنساني يطالبه بالاستجابة.

ويحرص ليفيناس على التمييز بين مفهوم الأخلاق بمعناه العام ومفهوم «الإتيقا». فالأخلاق في معناها المتداول قد تشير إلى مجموعة القيم والمعايير التي تحدد السلوك المقبول داخل المجتمع، في حين أن الإتيقا عنده تشير إلى العلاقة الأصلية والمباشرة بين الذات والآخر. إنها علاقة لا تبدأ من قانون أو قاعدة مسبقة، وإنما تبدأ من اللقاء الإنساني ذاته، ومن حضور الآخر أمام الذات.

وبذلك فإن الإتيقا لا تعني عند ليفيناس مجرد الالتزام بمجموعة من الأوامر الأخلاقية، وإنما تعني تجربة أولية يجد فيها الإنسان نفسه مسؤولًا أمام الآخر. فاللقاء مع الآخر يفتح المجال أمام الحوار والتخاطب والاعتراف والمسؤولية، ومن ثم تصبح الإتيقا الأساس الذي تنبني عليه الأخلاق بمعناها الأوسع.

نقد أولوية الأنطولوجيا وتأسيس أولوية الأخلاق.(ليفيناس، 2014: 93)[14]

يرتبط المشروع الأخلاقي عند ليفيناس ارتباطًا وثيقًا بنقده للأولوية التي منحتها الفلسفة الغربية للأنطولوجيا، أي لسؤال الوجود. فقد رأى أن اختزال التفكير الفلسفي في سؤال الوجود قد يؤدي إلى إهمال العلاقة الإنسانية مع الآخر، لأن الآخر يصبح ضمن هذا التصور مجرد موجود يمكن إدراكه وفهمه وتصنيفه.

"ويظهر هذا النقد بصورة واضحة في موقف ليفيناس من هايدغر؛ فبينما جعل هايدغر سؤال الوجود محورًا أساسيًا للفلسفة، حاول ليفيناس نقل مركز الاهتمام من سؤال «ما الوجود؟» إلى سؤال أخلاقي يتعلق بمسؤولية الإنسان تجاه الآخر. فالأولوية، بالنسبة إليه، لا ينبغي أن تكون للأنطولوجيا، وإنما للعلاقة الأخلاقية التي تجمع الإنسان بغيره.

ولا يعني ذلك أن ليفيناس ينكر أهمية سؤال الوجود، وإنما يرى أن هناك مستوى أعمق ينبغي أن يسبق التفكير الأنطولوجي، وهو مستوى العلاقة مع الآخر. فالإنسان لا يوجد أولًا بصورة مستقلة ثم يدخل بعد ذلك في علاقات أخلاقية، وإنما تتشكل ذاته من خلال انفتاحها على الغير وتحملها المسؤولية تجاهه.

ومن هنا يظهر التعارض الذي يقيمه ليفيناس بين الأنطولوجيا والإتيقا؛ فالأنطولوجيا تميل إلى إدخال الموجود في إطار المعرفة والتصور، بينما تكشف الإتيقا عن حضور الآخر الذي يتجاوز كل محاولة للاختزال. ولهذا فإن الأخلاق لا تكون مجرد تطبيق لاحق لمبادئ أنطولوجية، وإنما تمثل مستوى سابقًا عليها من حيث علاقتها المباشرة بالآخر.(هنسل، 2008: 136)[15]

ثالثا:- الآخر والوجه والعلاقة

يحتل مفهوم الآخر مكانة مركزية في فلسفة ليفيناس، إذ لا يمكن فهم مشروعه الأخلاقي دون فهم طبيعة العلاقة بين الذات والغير. فالآخر ليس مجرد ذات ثانية تشبه الذات، ولا هو موضوع يمكن إدخاله ضمن تصوراتها، بل هو كائن يحتفظ باختلافه واستقلاله.

ومن هنا يبرز مفهوم «الوجه» بوصفه أحد أهم المفاهيم في فلسفة ليفيناس الأخلاقية. فالوجه لا يدل فقط على المظهر الحسي للإنسان، وإنما يمثل الطريقة التي يحضر بها الآخر أمام الذات بوصفه آخرًا مستقلًا ومتجاوزًا لقدرتها على الامتلاك والسيطرة.

إن مواجهة الوجه تضع الذات أمام نداء أخلاقي مباشر؛ فالوجه لا يكتفي بالحضور، وإنما يستدعي المسؤولية. ولذلك فإن العلاقة «وجهًا لوجه» لا تعني مجرد لقاء بين شخصين في المكان نفسه، وإنما تعني مواجهة أخلاقية تنفتح فيها الذات على الآخر وتدرك أنها مسؤولة عنه.

ويترتب على ذلك أن الآخر لا يمكن اختزاله في الذات أو تحويله إلى صورة منها. فاختلاف الآخر يمثل شرطًا أساسيًا لقيام العلاقة الأخلاقية؛ إذ إن إلغاء الاختلاف يعني إلغاء الآخر نفسه. ومن ثم فإن احترام الآخر يتطلب الحفاظ على فرادته وعدم إخضاعه لمعايير الذات الخاصة.(الميلاني، 2018: 238)[16]

فتمثل المسؤولية أحد المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها أخلاق ليفيناس. فالذات تصبح مسؤولة عن الآخر بمجرد مواجهتها له، وهذه المسؤولية لا تعتمد على وجود مصلحة متبادلة أو منفعة مشتركة. فالإنسان لا يكون مسؤولًا عن الآخر لأنه اختار ذلك بصورة إرادية فحسب، وإنما يجد نفسه منذ البداية أمام مسؤولية تفرضها طبيعة اللقاء الإنساني.

ولهذا فإن المسؤولية عند ليفيناس تسبق الحرية بمعناها التقليدي. فالإنسان لا يختار أولًا أن يكون مسؤولًا ثم يبدأ بعد ذلك في ممارسة الأخلاق، بل إن المسؤولية تسبق الاختيار الواعي. فالوجه يضع الذات أمام واجب الاستجابة، ويجعلها تدرك أنها ليست موجودة من أجل ذاتها وحدها.

كما أن هذه المسؤولية لا تقوم على مبدأ التبادل. فالذات مسؤولة عن الآخر حتى في الحالات التي لا يقدم فيها الآخر شيئًا مقابل هذه المسؤولية. وهذا ما يجعل الأخلاق عند ليفيناس مختلفة عن التصورات النفعية أو التبادلية للأخلاق؛ إذ إن أساس العلاقة الأخلاقية ليس المنفعة، وإنما الاعتراف بأولوية الآخر وحقه في الاحترام.

وعلى هذا الأساس، تصبح الأخلاق تجاوزًا للأنانية والانغلاق على الذات. فالذات الأخلاقية هي الذات التي تستطيع أن تخرج من مركزيتها وأن تستجيب للآخر دون أن تشترط الحصول على مقابل. ومن هنا فإن المسؤولية تمثل جوهر العلاقة الأخلاقية وأساسها الأول.

رابعا: الاختلاف والاعتراف بالآخر

يرتبط مفهوم المسؤولية عند ليفيناس ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الاختلاف. فالآخر لا يكون آخرًا إلا بقدر ما يحتفظ بخصوصيته وعدم مطابقته للذات. ولذلك فإن العلاقة الأخلاقية الحقيقية لا تهدف إلى إزالة الاختلاف، وإنما تقوم على الاعتراف به.(هنسل،2008: 136)[17]

إن محاولة استيعاب الآخر بصورة كاملة داخل مفاهيم الذات تؤدي إلى إلغاء الآخر وتحويله إلى موضوع تابع لها. ولهذا يؤكد ليفيناس ضرورة المحافظة على المسافة التي تفصل بين الذات والغير. وهذه المسافة لا تعني القطيعة أو العزلة، وإنما تمثل الشرط الذي يسمح بقيام علاقة أخلاقية قائمة على الاحترام والاعتراف."

ومن هنا تصبح الغيرية مفهومًا أساسيًا في أخلاق ليفيناس؛ فالغير ليس «أنا» أخرى يمكن اختزالها في تجربتي الخاصة، وإنما هو آخر يظل محتفظًا بغربته وتفرده. ولذلك فإن الاعتراف بالغير يعني الاعتراف بأنه ليس امتدادًا للذات، وأن له حقًا في أن يكون مختلفًا عنها.

بعد تحديد طبيعة العلاقة بين الذات والآخر، يمكن فهم السبب الذي دفع ليفيناس إلى وصف الأخلاق بأنها «الفلسفة الأولى». فالأخلاق ليست عنده فرعًا من فروع الفلسفة يأتي بعد الأنطولوجيا، وإنما هي المجال الذي تتأسس فيه الذات الإنسانية ذاتها.

فالإنسان لا يبدأ بوصفه ذاتًا مستقلة مكتفية بذاتها، ثم يبحث لاحقًا عن علاقة بالآخر، بل إن علاقته بالآخر تمثل أحد الشروط الأساسية لتكوينه الإنساني. ولذلك فإن سؤال الوجود لا يكون سابقًا بالضرورة على السؤال الأخلاقي، لأن الوجود الإنساني نفسه ينكشف من خلال العلاقة مع الغير.

وتكمن أهمية الإتيقا في أنها تجعل العلاقة بين الذات والآخر نقطة البداية في التفكير الفلسفي. فاللقاء مع الآخر يستبدل سؤال الوجود بسؤال المسؤولية، ويجعل من الإنسان كائنًا مطالبًا بالاستجابة قبل أن يكون مجرد كائن يسعى إلى فهم وجوده.(ليفيناس، 2014: 15)[18]

ومن هذا المنطلق، يؤكد ليفيناس أن العلاقة الأخلاقية ليست علاقة موضوعية يمكن تحليلها بالطريقة التي نحلل بها الأشياء، لأنها تقوم على حضور الآخر الذي يتجاوز كل محاولة للامتلاك المعرفي. فالآخر لا يتحول إلى موضوع، بل يبقى ذاتًا متعالية على الذات، وهذا التجاوز هو الذي يمنح العلاقة طابعها الأخلاقي.

خامساً: - العلاقة بين الأخلاق والأنطولوجيا

لا يكتفي ليفيناس بإعطاء الأخلاق أولوية على الأنطولوجيا، وإنما يعيد النظر في طبيعة العلاقة بينهما. فالأخلاق، في تصوره، تكشف عن مستوى من الوجود الإنساني لا يمكن للأنطولوجيا وحدها أن تفسره. فالإنسان لا يعيش فقط بوصفه موجودًا، وإنما يعيش بوصفه مسؤولًا أمام موجود آخر.

ومن هنا فإن الأخلاق تكشف عن بُعد ميتافيزيقي يتجاوز حدود الأنطولوجيا؛ لأنها تقوم على علاقة لا يمكن اختزالها إلى علاقة بين موضوعين. فالآخر يظل متعاليًا على الذات، ولا يمكن إخضاعه بالكامل لمقولاتها أو معاييرها.

ولهذا فإن فلسفة ليفيناس تقدم تحولًا في طريقة التفكير الفلسفي: فبدلًا من أن تبدأ الفلسفة من الذات أو من الوجود، تبدأ من الآخر ومن المسؤولية التي يفرضها حضوره. وبذلك تصبح الأخلاق أساسًا لفهم الإنسان قبل أن تكون مجرد مجموعة من القواعد التي تحدد سلوكه.

الخاتمة:

يتضح مما تقدم أن فلسفة ليفيناس الأخلاقية تقوم على إعادة بناء الفكر الفلسفي انطلاقًا من العلاقة مع الآخر. فالأخلاق عنده ليست مجرد منظومة من القيم والقواعد، وإنما هي علاقة أولية تتأسس منذ اللحظة التي تواجه فيها الذات وجه الآخر.

وقد جعل ليفيناس من مفاهيم الوجه، والغيرية، والاختلاف، والمسؤولية، والاعتراف، والعلاقة وجهًا لوجه مفاهيم مركزية في بناء فلسفته الأخلاقية. ومن خلالها تجاوز التصور الذي يجعل الذات مركزًا مطلقًا للفلسفة، وأكد أن الآخر لا يمكن اختزاله إلى موضوع للمعرفة أو إلى امتداد للذات.

وبذلك تصبح الإتيقا، في فلسفة ليفيناس، سابقة على الأنطولوجيا من حيث التأسيس الأخلاقي للوجود الإنساني. فالإنسان لا يتحدد فقط بما هو موجود، وإنما بما هو مسؤول عنه تجاه الآخر. ومن هنا استحق وصف الأخلاق بأنها «الفلسفة الأولى»، لأنها تمثل الأساس الذي تنبني عليه إمكانية العلاقة الإنسانية، وتمنح وجود الإنسان بعده الأخلاقي الأصيل.

قائمة المصادر:

ليفيناس، إيمانويل .(2014) .*الزمان والآخر* (جلال بدلة، مترجم، ط. 1). دمشق، سوريا .

سارتر، جان بول .(1964) .*الوجودية مذهب إنساني* (عبد المنعم الحفني، مترجم). الدار المصرية للعلوم .

بتلر، جوديث .(2014) .*الذات تصف نفسها* (فلاح رحيم، مترجم). دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع .

ليتشه، جون. (د.ت.) .*خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا: من البنيوية إلى ما بعد الحداثة* (فاتن السيتاني، مترجمة). د.ن .

هنسل، جويل .(2008) .*ليفيناس: من الموجود إلى الغير* (علي بوملعة، مترجم). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

عمر، رحيم .(2016–2015) .*فينومينولوجيا الوجه والإيروس عند إيمانويل ليفيناس* (رسالة ماجستير)

إبراهيم، زكريا .(1966) .*المشكلة الخلقية* .دار مصر للطباعة .

المسيري، عبد الوهاب .(1999) .*موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية* (مج. 5). دار الشروق للطباعة والنشر .

السيد علي، غضبان. (د.ت.). التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس .*مجلة كلية الآداب*، (87)

الميلاني، هاشم. (2018). الاستغراب .*مجلة الاستغراب*، (10)، بيروت.